المرأة في التراث العربي الإسلامي
قراءة لأدونيس

رباني الحاج،
مخبر البحوث الإجتماعية والتاريخية،
جامعة معسكر.

كثيرا ما شكلت المرأة هاجسا حقيقيا للمجتمعات العربية الإسلامية وتراوحت مكانتها بين النظرة الإيجابية لها وإعتبارها الفاعل الأساسي في الواقع الإجتماعي والثقافي والشرط الأساسي لكل نهضة حضارية، وبين النظرة السلبية التي تحاصر المرأة من كل جانب والتي تلصق بها كم هائل من الرموز والدلالات التي تحط من قيمتها والشيئ الأساسي الذي ينتج عن هاتين النظرتين هوذلك المخيال الذي يتشكل من خلال الكثير من التناقضات والصراعات الداخلية والذي يجعل النظرة إلى المرأة غير متزنة وغير مستقرة وتحيط بها الأسرار من نواحي مختلفة فتكون مساحة المسكوت عنه في هذا المجال واسعة إلى الحد الذي يجعل موضوع المرأة يتحول إلى طابو Tabou من جهة وإلى مودة Mode من جهة أخرى وهكذا تحضر النظرة الصراعية لتغيب النظرة الموضوعية وفي ظل الصراع تترسخ وتتجذر النظرة التي يدافع عنها الطرف الأقوى فتصادر نظرة الطرف الأضعف وهوما يكرس النظرة الإنقسامية ويؤسس لهاجس الغلبة بدل التأسيس لإرادة الفهم والمعرفة الذي يقوم على التواصل عبر جسر الكينونة وبالتالي النظر إلى الآخر كأنا والنظر إلى الأنا كآخر أي التواصل البين ذاتي، مع الأخد بعين الإعتبار أن كل نظرة تبقى نسبية وهوما يفرض علينا التحلي بروح التسامح والإنصات لصوت الآخر وهذا على إعتبار أن الموضوع مرتبط النوايا الحسنة والأغراض السيئة، لذلك قد تتوحد الغايات وتختلف الوسائل، من هنا يكون المخيال أكثر تعقيدا وستكون ورقتنا مخصصة لأحد أهم المفكرين العرب في العصر الحديث من الناحية الإبداعية والناحية النضالية وهوأدونيس، فكيف عالج موضوع المرأة في المخيال

العربي الإسلامي؟ وماهي أهم النتائج التي إستطاع الوقوف عليها من خلال قراءته لصورة المرأة في التراث العربي الإسلامي؟

يتخد أدونيس لنفسه موقفا نقديا من التراث العربي الإسلامي، ويتعامل معه من منطلق ماله وما عليه، فيكشف عن الأماكن المعتمة فيه كما يكشف عن الأماكن المضيئة، والملفتة للإنتباه أنه إنشغل وإهتم بالجوانب المختلفة لهذا التراث دينية وفكرية وإجتماعية وسياسية وثقافية وأدبية، ولهذا كان إهتمامه بالبعد الإنساني في هذا التراث متميز وموحيا بثورة فكرية هدفها الأساسي هوتحرير الإنسانالعربي المسلم من القيود التي فرضتها عليه المنظومة الثقافية المتماسكة البنيان والمتراصة الأخير والتي تخمد أمامها كل شحنة ملتهبة أوروح صاعدة ومغامرة، إن إهتمام أدونيس ينقد التراث في بعيده العربي والإسلامي لم يكن إهتماما معرفيا فحسب بل كان إهتماما مرفوقا بهاجس التحطيم والهدم والتفكيك بإعتبار هاجسا ينقل التراث من التمركز حول الموضوع إلى التمفصل حول الذات، أومن الخضوع إلى هيمنة التراث إتجاها نحونقده وإخضاعه لما تتطلبه الذات الإنسانية من حركية ونشاط وحيوية، في هذا السياق يأتي إهتمام أدونيس بالمرأة ومكانتها في التراث العربي الإسلامي والمنظور الذي ينظر من خلاله إليها، وبالتالي صورتها في المخيال العربي – الإسلامي ويعتمد في هذا على الرجوع إلى المصادر الأساسية التي شكلت هذا المخيال، إذ أن البداية ستكون من الصورة التي رسمها القرآن للمرأة والتي تشير إلى خلقها من ضلع آدم عندما كان في الجنة وبعد أكلهما من الشجرة التي نهيا عنها دخل آدم في جوف الشجرة فناداه ربه : " يا آدم أين أنت؟ قال أنا هنا يا رب. قال : ألا تخرج؟ قال : أستحي منك يا رب. قال : ملعونة الأرض التي خلقت منها لعنة يتحول ثمرها شوكا...ثم قال يا حواء أنت التي غررت عبدي، فإنك لا تحملين حملا إلا كرها، فإذا أردت أن تضعي ما في بطنك أشرفت على الموت مرارا ". (أدونيس : ج1، 1976: 220).

هذه الصورة توحي في نظر أدونيس إلى قيمة أساسية وهي أن حواء وحدها هي التي تعرضت لإغراء إبليس، فإبليس توصل إلى إغراء آدم بصورة غير مباشرة أي عن طريق حواء، وهذا ما يرسخ ما يشبه " الخطيئة الأصلية " التي كان سببها

خضوع حواء لرغبة الشيطان وبالتالي فهي أصل العلاقة بين الشيطان والإنسان، ولذلك تنسب إليها نفس الصفات والخصائص التي تنسب إليه.

يستأنف أدونيس حديثه ملاحظا أن الإسلام حررالمرأة من قيود كثيرة، إجتماعية وإنسانية، إلا أنه يرى أن الإسلام لم يغير طبيعة النظرة إلى المرأة فهويتصور بأن الحب في الإسلام بقي كما في الجاهلية حسيا - إيروسيا. ولذلك من الأفضل الإقتصار على إستخدام لفظة الجنس، دون الحب. فالحب في الإسلام جنس، في الدرجة الأولى ". (أدونيس، ج1، 1976 : 226)

يتصور أدونيس أن الإسلام لم يحرر المرأة من النظرة الدونية التي كانت موجودة لدى عرب الجاهلية، ولهذا فالتغيير الذي جاء به الإسلام لم يلامس البنى العميقة التي يقوم عليها الوجدان العربي في تصوره للمرأة، ونلاحظ هنا طبيعة المدخل الذي إختاره أدونيس لبحث هوية المرأة في التراث العربي الإسلامي حيث وجه إنتباهه إلى مسألة في غاية الحساسية وهي مسألة مرتبطة بذاتية المرأة وكينونتها الأكثر حميمية، إنها نظرة جوانية تسعى إلى رفع الغطاء عن ماهومستور وما هومقصى من مجال التفكير، وهوالنظر إلى المرأة كموضوع للإغراء والفتنة، وتتمثل صلة الفتنة بالمرأة في تصور لها يتضح فيه معنى " الإبتلاء في بعده الديني : فالمرأة أهم ما يمتحن به الرجل. جاء في الحديث : «ما تركت فتنة أضر على الرجال من النساء »ومن هنا فتنت فلانة فلانا معناه أمالته عن القصد فتكون الفتنة المميلة عن الحق، ... فالفتنة إذا هي معا إغواء وعصيان، إنها السحر والتمرد ذلك أن الرجال يعصون إرادة الله في ظل سحر المرأة. فيكون جمال المرأة طعما يؤدي إلى الخسارة والهلاك الأبدي، ولذلك فالمرأة من هذا المنظور تعتبر من حبائل الشيطان ". (صوفية، س.2008 : 48)

هكذا تترسخ في المخيال العربي الإسلامي هوية المرأة كإغراء وفتنة فيكون حضورها حضورا مرهونا بما تحققه من خلخلة وزلزلة في كيان الرجل تحت ضغط أنثوي غير قابل للتعقل أوللترشيد، من هنا تتأسس العلاقة القائمة على العناد بين الرجل والمرأة، فتعمل المرأة على كسر شوكة الرجل بالتركيز على حضورها الأنثوي على حساب أشكال الحضور الأخرى، فيتقلص حضورهاإلى حضورأنثوي خالص على حساب أشكال الحضور الأخرى، كما يتقلص هذا الحضور الأنثوي

إلى حضور مملوء بالجوانب الحسية. لهذا يستخلص أدونيس أن العلاقة بين الرجل والمرأة خالية من أية عاطفة حب والآية الوحيدة التي تشير إلى شيء من الحب هي التي وردت في سورة الروم، آية 21، وهي القائلة: « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها، وجعل بينكم مودة ورحمة، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ». (أدونيس،ج1، 1976 : 227)

إذا كان أدونيس يتقفى صورة المرأة في الإسلام بهذا الشكل فهذا لا يعني أنه يحصر تلك الصورة في شكل واحد من الأشكال التي اتخدتهاصورة المرأة في التراث العربي الإسلامي، والقول أن الإسلام يجب ما قبله كماهومتداول في الأثر لا يمكن أن يأخد على علاته، بل إنه يحتاج إلى شيء من النظر والتمحيص، ولذلك ليس من الصحيح فهم التراث الإسلامي بمعزل عن التراثات التي أثمرتها التجارب الإنسانية المختلفة، ومنه فإن الصحيح هوإتباع منهج المقارنة والمحاورة، وتجاوز الأعراض الظاهرة إلى الحقائق الباطنية بغية تحرير الموضوعات التي ندرسها من قيود الإيديولوجيات المتحكمة فيها ،إنطلاقا من هذه الرؤية يرى أدونيس أن " الحب في القرآن نقيض الحب الأفلاطوني : لا حنين ولا بحث ولا وعد بالمستقبل، لا تطلع، لا هاجس علوولا هاجس إتحاد.

الحب في القرآن قرار أوعلاقة يقررها الرجل، وعلى المرأة أن تخضع. فليس الغاية الحب بل التيه الجنسي. وهذا مما فصل الحب عن العمل واللغة.

الحب هنا مجرد حب طبيعي – بيولوجي. المرأة فيه لا تعرف الرجل، وهي لا تأمل بأن تصير الآخر، أوتتخطاه. العربي المسلم لا تهمه المرأة، بل تهمه النساء. وهولا يهمه أن يحبهن بل يهمه أن يمتلكهن.(أدونيس، ج1. 1976 :227)

في تتبعه لمكانة ورمزية المرأة في التراث العربي الإسلامي لا يجد أدونيس غضاضة ولا إحراجا في الإنتباه إلى كل ما يتصل بالمرأة من ممارسات داخل هذا التراث فيقول " الواقع أن الرجل المسلم حين كان يتزوج امرأة ثانية، لم يكن يشعر أنه تخلى عن زوجته الأولى، ولذلك أنه كان يراها وسيلة، وكان ينظر إليها كشيء مما يملكه.

فصورة العلاقة بين الرجل والمرأة في القرآن هي علاقة زواج، أي علاقة إرتباط تعاقدي، ديني، وليست علاقة حب يرى أن الزوجين شخص واحد. وأن

الرجل حين يتخلى عن زوجته يتخلى عن جزء من كيانه ". (أدونيس،ج1. 1976 : 228)

يوثق أدونيس كلامه بدقة، فهوهنا يتحدث عن صورة المرأة في القرآن، وهي في نظره المرأة الجسد المسكون بالشهوة، ودور المرأة هنا قتل تلك الشهوة بإشباعها ماديا،وهوما يفسرالرابطة القوية بين الإشباع والإنجاب، وإذا كانت كل النساء مؤهلة لهذا الدور الوظيفي فكلهن سواء في نظر الرجل العربي المسلم، أي أنه يرى فيهن الجسد دون الروح، ومع ذلك فأدونيس يحدد كلامه بدقة لإدراكه إحتواء التراث العربي الإسلامي على جوانب متباينة في نظرتها إلى المرأة، فهويستقي من هذا التراث ما يراه مستنيرا، جديرا بالإهتمام، ولا أدل على ذلك- في نظره- من تجارب بعض شعراء العرب في الجاهلية، وهي تجارب صادقة في هيامها، وصفائها ونقائها، مستلهمة من الداخل متجهة إلى عوالم غريبة عن عالم الحس ومتجاوزة له، ومع أننا قد لا نستطيع مجاراة أدونيس في كل ما يستنتجه ويستخرجه من دراسته للنصوص التراثية التي اشتغلت بموضوع المرأة إلا أننا نستطيع أن نوافقه على أن التراث لا يخلومن تلك النظرة التي تبدوا فيها المرأة موضوعا أوشيئا، فالجابري في تعرضه لنظام القيم في الثقافة العربية وبتطرقه لموضوع المرأة يكشف لنا عن نصوص تراثية على غرار كتاب " عيون الأخبار " ل إبن قتيبة، وكتاب " العقد الفريد " ل إبن عبد ربه، لا تبتعد كثيرا عن الصورة التي يرسمها أدونيس للمرأة في التراث العربي الإسلامي، فمما يروى في " عيون الأخبار " أن " رجلا وامرأته اختصما إلى أمير من أمراء العراق، وكانت حسنة المنتقب قبيحة المسفر وكان لها لسان، فكأن العامل مال معها فقال : يعمد أحدكم إلى المرأة الكريمة فيتزوجها ثم يسيء إليها فأهوى الزوج فألقى النقاب عن وجهها، فقال العامل : عليك اللعنة،كلام مظلوم ووجه ظالم !

وأيضا كان يقال :البكر كالذرة تطحنها وتعجنها وتخبزها، والثيب عجالة راكب، تمر وسويق " وينقل عن ابن المقفع " المرأة غل فانظر ماذا تضع في عنقك ".(الجابري.2001 : 208)

يواصل الجابري في قراءته لكتاب "عيون الأخبار " تتبع بنية هذا الكتاب، وبالتالي كيفية إدراج الموضوعات المطروقة، فيجد أن الحديث عن السلطان يأتي في

القمة لتتدرج المنازل إلى آخر منزلة وهي " الطعام " أوالمأكول، يقول الجابري عن ابن قتيبة " بما أنه بنى ترتيب أقسام كتابه على المشاكلة والقرب والتشابه، فجعل كتاب الحرب تاليا لكتاب السلطان لأنه مشاكل له وهكذا... فقد كان طبيعيا أن يبحث للكتاب الأخير " كتاب الطعام " عن مقارب له ومشاكل، فوجد النساء ! وهذا يبرره كون النساء والطعام بينهما أكثر من علاقة : يجمعها اختصاصهما بالبقاء في البيت من جهة، واختصاص النساء بمهنة إعداد الطعام من جهة ثانية، ثم يجمعهما كونهما " الأطيبين " الذين يرويان شهوتي البطن والفرج، وهما زوجان لا يفترقان في الخطاب العربي " (الجابري. 2001 : 209)

ومع إقرارالجابري بالتلازم بين المرأة والطعام في الخطاب العربي إلا أنه يريد إنقاد صورة المرأة في التراث بالقول أن هذه المرويات جاءت من الموروث الفارسي ويستغل في ذلك نصوص بعض الشخصيات الفارسية كقول ابن المقفع " قالت العلماء " إن أمورا ثلاثة لا يجترئ عليهن إلا أهوج، ولا يسلم منهن إلاالقليل : وهي صحبة السلطان، وإئتمان النساء على الأسرار، وشرب السم للتجربة " وقوله " إعلم أن من أوقع الأمور في الدين وأنهكها للجسد وأتلفها للمال وأضرها بالعقل وأزراها للمروءة وأسرعها في ذهاب الجلالة والوقار، الغرام بالنساء. وإنما النساء أشباه.... بل النساء أشبه بالنساء من الطعام بالطعام " (الجابري. 2001 : 210).

بعد تلك النصوص والمرويات التي يعرضها الجابري وفقا لما جاءت عليه عند ابن قتيبية وابن عبد ربه يقول " لا يختلف مضمون " كتاب النساء " في العقد الفريد " عنه في " عيون الأخبار " !فالمرأة هنا هي نفسها هناك : امرأة الفراش لا غير " (الجابري. 2001 : 216) لكن الغريب في الأمر هوتظاهر الجابري بربط المسألة برمتها بنظام القيم الفارسي لكننا قد لا نخطئ إذا قلنا أنه يعرف أن ما يتحدث فيه هوأحد الطابوهات في الثقافة العربية قديما وحديثا، ومالم يصرح به الجابري رغم وجوده هوأن صورة المرأة بهذا الشكل موجودة في التراث العربي بغض النظر عن أنها أصيلة أم دخيلة، ولا ينفي وجود هذه النظرة القول بوجود نصوص أخرى تنص على أن النساء شقائق الرجل. أو" الجنة تحت أقدام الأمهات " وبما أن اهتمامنا منصرف إلى صورة المرأة في التراث عند أدونيس، فإننا نقول أن ما يبرر نظرة هذا الأخير الجريئة للمرأة هوالوضعية التي تحتلها في المخيال والوجدان أي في الثقافة

الحية للإنسان العربي المسلم لذلك يرى أن صورة المرأة في الشعر العربي هي الصورة الأكثر إنسانية. وصورة تخاطب المرأة وتنظر إليها كذات فاعلة ومؤثرة، فيتصور أن " شعر جميل بثينة يقدم لنا صورة عن الحب تغاير الصورة القرآنية. فالمرأة الحبيبة في هذا الشعر ليست النساء جميعا فحسب، وإنما هي كذلك، الوجود كله. يقول جميل :

وددت، ولا تغني الودادة، أنها نصيبي من الدنيا وأني نصيبها

ويقول :

فما سرت من ميل، ولا سرت ليلة من الدهر، إلا اعتادني منك طائف.

أقلب طرفي في السماء لعله يوافق طرفي طرفها حين تنظر

ويقول :

لقد لامني فيها أخ ذوقرابة حبيب إليه في نصيحته رشدي

فقال : أفق حتى متى أنت هائم ببثينة فيها لا تعيد ولا تبدي

فقلت له : فيها قضى الله ما ترى علي، وهل فيما قضى الله من رد؟ (أدونيس،ج1. 1976 : 229)

يفهم أدونيس من هذا أن جميل يصور لنا حبه كأنه حالة لا يستطيع أن يفسرها، فهي لا تخضع للتحاليل، ولذلك لا تخضع للمعرفة العلمية أوالعقلية. إنه حالة لا شعورية، بل هوحالة حصلت له قبل أن يولد. فحبه سر كوني، أوقوة خفية جدبته إليها دون أن يعرف كيف، ولماذا؟ ومن هنا هيامه الذي يؤدي به إلى القلق والتحول وأخيرا إلى الموت. (أدونيس، ج1. 1976 :230)

هذه الحالة حسب أدونيس شغلت جميل عن بثينة – المرأة، ببثينته – المثال الذي يجمع في ذاته كل شيء. وهكذا تحول حبه من بثينة إلى حبه ذاته الذي أصبح الكون كله. صار يحب حبه لها أكثر من حبه إياها. وتعليل ذلك أن الصورة التي خلقها جميل في خياله لبثينة شفافة، لطيفة لا تلوثها علائق العالم المحسوس الذي نعيش فيه، وهي لذلك أجمل في عينيه من الصورة المحسوسة. (أدونيس، ج1. 1976 : 230)

هكذا تبدوالمرأة لأدونيس كائنا سحريا، وفي " السحر ينقلب نظام العالم ونظام العقل معا، يصبح المحال ممكنا، وغير المعقول معقولا. إن في بثينة سحرا

يشيعها في كل شيء بحيث يصبح كل ما يتصل بها حبيبا إلى جميل. ولوكان عدوا ".

ويعبر عن ذلك في قوله :

وقالوا : يا جميل أتى أخوها فقلت : أتى الحبيب أخوالحبيب. (أدونيس، ج1. 1976 : 234)

فالحب عند جميل يتجاوز الحياة اليومية، ويتجه إلى مالا ينتهي، إنه اتجاه إلى اللانهاية، وهوإذن رمز للمطلق، لذلك ليس الحب عنده شيئا بين أشياء وإنما هوتحقيق للذات، بل هونوع من التدين.

ويصل أدونيس إلى أن جميل يتجاوز مفهوم العدالة في العلاقة بين الرجال والنساء، كما تصورها الإسلام إلى مفهوم الوفاء لامرأة واحدة، سواء تزوجها أوتزوجت غيره. فعلاقة الحب في الإسلام لا تعني أن يقف الرجل جسده وقلبه على المرأة التي يتزوجها أويحبها، أي يكون وفيا لها، وإنما تعني أن يعدل بين اللائي يتزوجهن.

المراجع والمصادر :

1. أدونيس، علي أحمد سعيد،(1976)، الثابت والمتحول (الأصول 1)، الطبعة 5، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

2 ـ الجابري، محمد عابد، (2001)، العقل الأخلاقي العربي، نقد العقل العربي 4 (دراسة تحليلية نقدية لنظم القيم في الثقافة العربية ، الطبعة 1، بيروت، مركز الدراسات الوحدة العربية.

3 ـ صوفية السحيري بن حتيرة، (2008)، الجسد والمجتمع (دراسة أنتروبولوجية لبعض الإعتقادات والتصورات حول الجسد)، الطبعة 1 ،بيروت، دار محمد علي للنشر بتونس.